



# الفيل الأبيض

كامل كيلاني





Группа *Арабского Языка* [vk.com/arabictutor](https://vk.com/arabictutor)

الفيلُ الأبيضُ





Группа Арабского Языка [vk.com/arabictutor](https://vk.com/arabictutor)

# الفيل الأبيض

تأليف  
كامل كيلاني



هنداوي

رقم إيداع ٢٠١٢/١٦٥٣٣

تدمك: ٦ ٠٢٠ ٩٧٧ ٧١٩ ٩٧٨

**مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة**

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

## الفيل الأبيض

### (١) «أبو الحجاج»

كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ تَتَكَلَّمُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ: أَعْنِي فِي الْعُصُورِ الْأُولَى الَّتِي انْقَضَى عَلَيْهَا آلافُ السِّنِينَ. كَانَتْ تَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ. وَقَدْ عَاشَ — فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْغَابِرَةِ — جَمَهْرَةٌ مِنْ الْأَقْيَالِ عَيْشَةً رَعْدَةً هَنِئَتْ، فِي بَعْضِ الْغَابَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ جِبَالِ «الْهَمَلَايَا» فِي الْهِنْدِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَقْيَالُ جَمِيلَةً الْمَنْظَرِ، حَسَنَةً الشَّكْلِ، وَقَدْ فَاقَهَا جَمِيعًا فَيْلٌ يُدْعَى: «أَبَا الْحَجَّاجِ»، وَهُوَ أَبْيَضٌ، ضَخْمُ الْجُبَّةِ، نَبِيلُ النَّفْسِ؛ فَأَصْبَحَ بَيْنَ الْأَقْيَالِ جَمِيعًا خَيْرَ مَثَالٍ لِأَنْبِلِ الْمَزَايَا، وَأَكْرَمِ الْأَخْلَاقِ.

### (٢) «أُمُّ شَيْبَلٍ»

أَمَّا «أُمُّ شَيْبَلٍ» — وَهِيَ أُمُّ ذَلِكَ الْفَيْلِ الْوَدِيعِ الْكَرِيمِ النَّفْسِ — فَقَدْ كَانَتْ، وَالْحَقُّ يُقَالُ، حَكِيمَةً مُجَرَّبَةً، تَجَمُّعٌ — إِلَى سُمُوِّ السَّجَايَا — بُعْدَ النَّظَرِ، وَأَصَالَةَ الرَّأْيِ، وَصِدْقَ الْفِرَاسَةِ (صِحَّةَ الْإِسْتِدْلَالِ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْبَادِيَةِ). وَلَكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ أَفْعَدَتْهَا — لِسُوءِ الْحِظِّ — وَأَعْجَزَتْهَا عَنِ السَّرِيرِ، وَكُفَّ بَصَرُهَا (عَمِيَتْ). فَاشْتَدَّ عَجْزُهَا، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهَا آفَاتُ الْهَرَمِ وَعَلَلَةٌ؛ فَلَبِثَتْ — فِي مَكَانِهَا — لَا تَنْتَقِلُ خُطْوَةً، وَلَا تُحَرِّكُ قَدَمًا.

### (٣) وفاء «أبي الحجاج»

وَقَدْ كَانَ وَفَاءً «أَبِي الْحَجَّاجِ» لِأُمِّهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَفِي وَلَدٌ بَارٌّ لَوَالِدَتِهِ الْحَنُونِ. نَعَمْ، عُنِيَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» بِ«أُمِّ شَبْلٍ» الْعِنَايَةَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَأَلْ جُهْدًا فِي إِسْعَادِهَا وَبِرِّهَا، وَتَلْبِيَةِ طَلِبَتِهَا. وَكَانَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَخْرُجُ — كُلَّ يَوْمٍ — لِيَجْمَعَ لِأُمِّهِ الْعَجُوزِ أَطْيَبَ الْفَوَاكِهِ الْبَرِّيَّةِ اللَّذِيذَةِ الطَّعْمِ، وَلَا يَدَعُ لَهَا مَجَالًا لِلتَّحَسُّرِ عَلَى أَيَّامِ شَبَابِهَا الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُومُ لَهَا بِكُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ، وَصُنُوفِ الْأَشْرِبَةِ.

### (٤) لُصُوصُ الْأَفْيَالِ

وَلَكِنَّ أُمَّرًا وَاحِدًا كَانَ يُزْعِجُ «أَبَا الْحَجَّاجِ» وَيَهْمُهُ، وَيَمْلَأُ نَفْسَهُ حُزْنًا وَأَسَى؛ ذَلِكَ: أَنَّهُ رَأَى كَثِيرًا مِنَ الْأَفْيَالِ الْأُخْرَى، تَسْرِقُ طَعَامَ أُمِّهِ الْعَجُوزِ، الَّتِي كُفَّ بَصَرُهَا، وَاشْتَدَّ عَجْزُهَا. وَقَدْ أَنْبَهُمُ «أَبُو الْحَجَّاجِ» عَلَى ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدَّةً، وَأَظْهَرَ لَهُمْ — فِي أَجْلِ بَيَانٍ، وَأَوْضَحَ أُسْلُوبٍ — أَنَّ عَمَلَهُمْ هَذَا غَايَةٌ فِي النَّدَالَةِ، وَلُؤْمِ الطَّبْعِ، وَفَسَادِ الْخُلُقِ، وَحَذَرَهُمْ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْفَعْلَةِ الْمَمْقُوتَةِ الشَّنْعَاءِ. وَلَكِنَّ الْأَفْيَالِ لَمْ تَقْلِعْ عَنْ عَادَتِهَا، وَلَمْ تَكْفُفْ عَنْ سَرِقَةِ الطَّعَامِ الَّذِي كَانَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَكُدُّ — طُولَ يَوْمِهِ — لِيَجْمَعَهُ لـ«أُمِّ شَبْلٍ».

### (٥) الْعَزْلَةُ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ انْتَحَى «أَبُو الْحَجَّاجِ» أُمَّهُ جَانِبًا، وَقَالَ لَهَا مَحْزُونًا: «لَقَدْ تَمَادَى أَصْحَابُنَا الْأَفْيَالُ فِي جَوْرِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَيْنَا. وَخَيْرٌ لِي وَلِكَ يَا أُمَّاهُ — فِيمَا أَرَى — أَنْ نَعِيشَ فِي عَزْلَةٍ، بَعِيدِينَ عَنْ هَوْلَاءِ اللَّصُوصِ الْخَائِنِينَ، فَإِذَا رَأَيْتِ رَأْيِي وَرَضِيتِ عَنْ هَذَا الْاِقْتِرَاحِ فَلَا تَتَوَانِي فِي الذَّهَابِ مَعِي إِلَى كَهْفٍ قَرِيبٍ، قَدْ تَخَيَّرْتُهُ لِسُكْنَانَا جَمِيعًا، وَهُوَ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْغَايَةِ. فَمَاذَا أَنْتِ قَائِلَةٌ؟»

فَارْتَاحَتْ «أُمُّ شَبْلٍ» لِهَذَا الْاِقْتِرَاحِ السَّدِيدِ، وَلَمْ تُعَارِضْ فِي تَلْبِيَّتِهِ، وَسَارَتْ — مِنْ فَوْرِهَا — إِلَى حَيْثُ يَقُودُهَا «أَبُو الْحَجَّاجِ»، حَتَّى وَصَلَا إِلَى مَأْوَاهُمَا الْجَدِيدِ، وَاسْتَقَرَّا فِي الْكَهْفِ.

وَكَانَ الْكُهْفُ حَسَنَ الْمَوْقِعِ، قَرِيبًا مِنْ بَعْضِ الْمُرُوجِ الْمُخْصَبَةِ، الْمَمْلُوءَةِ بِأَطْيَبِ  
الْفَوَاكِهِ الْبَرِّيَّةِ، وَأَشْهَى الثَّمَارِ اللَّذِيذَةِ، وَإِلَى جَانِبِهِ بَحِيرَةٌ صَغِيرَةٌ، مُغَطَّاءَةٌ بِأَزَاهِيرِ «اللُّوتْسِ»  
حَيْثُ عَاشَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» مَعَ أُمِّهِ زَمَانًا طَوِيلًا، أَمْنَيْنِ وَادِعَيْنِ، قَرِيرَيِ الْعَيْنِ، نَاعِمِي الْبَالِ،  
لَمْ يُكْذِرْ صَفْوَهُمَا أَيُّ كَذْرٍ.

### (٦) نَصِيحَةٌ «أُمِّ سِبْلٍ»

وَذَاتَ مَسَاءٍ كَانَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَتَحَدَّثُ إِلَى «أُمِّ سِبْلٍ» فِي الْغَارِ — عَلَى عَادَتِهِمَا —  
وَيُخَوِّضَانِ شَتَّى الْأَسْمَارِ وَمُخْتَلَفِ الذُّكْرِيَّاتِ. وَإِنَّهُمَا لَكَذَلِكَ، إِذْ طَرَقَ آذَانُهُمَا صِيْحُ عَالٍ  
يُدْوِي فِي الْعَابَةِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا. فَقَالَ «أَبُو الْحَجَّاجِ»: «أَلَا تَسْمَعِينَ — يَا أُمَاهُ — إِلَى هَذِهِ  
الصَّيْحَاتِ الْعَالِيَةِ؟ إِنَّهَا — بِلَا رَيْبٍ — صَيْحَاتُ إِنْسَانٍ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ، وَيَلْتَمِسُ الْعَوْتَ،  
وَلَعَلَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فَرِيْسَةً فِي قَبْضَةِ أَحَدِ أَعْدَائِهِ، وَلَا بَدَّ لِي مِنَ الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ، لَعَلِّي أَسْتَطِيعُ  
إِنْقَاذَهُ مِنَ الْهَلَاكِ.»

فَقَالَتْ لَهُ «أُمِّ سِبْلٍ»، وَهِيَ تُحَدِّثُهُ عَاقِبَةَ هَذَا الْأَمْرِ، وَتَرْجِرُهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُ: «كَلَّا —  
يَا وِلْدِي — لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنِّي — وَإِنْ رَأَيْتَنِي عَجُورًا عَمِيَاءَ، وَذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ — أَعْلَمُ  
عِلْمَ الْيَقِينِ عَدَرَ الْأَمِّيِّينَ بِنَا، وَإِيقَاعَهُمْ بِجِنْسِنَا، وَتَفَنُّنُهُمْ فِي طُرُقِ الْإِحْتِيَالِ عَلَى صِدْدِنَا.  
وَإِنِّي لِأُوَكِّدُ لَكَ أَنَّكَ إِذَا أَنْقَذْتَ هَذَا الْإِنْسَانَ التَّاعِسَ الْمُسْكِينَ، وَخَلَّصْتَهُ مِنَ الْهَلَاكِ، فَلَنْ  
يُقَابِلَ هَذَا الْإِحْسَانَ بِغَيْرِ الْإِسَاءَةِ وَالْجُحُودِ وَالْخِيَانَةِ وَالْكُنُودِ.»

### (٧) مُخَالَفَةُ النَّصِيحَةِ

وَلَكِنَّ «أَبَا الْحَجَّاجِ» لَمْ يُصْغِعْ إِلَى نَصِيحَةِ أُمِّهِ، وَلَمْ يُطِيقِ الْبَقَاءَ إِلَى جَانِبِهَا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ  
يَتَلَكَّأَ فِي إِغَاثَةِ الْبَائِسِ الْمَلْهُوفِ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنْقِذَهُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ؛ فَقَالَ «لَا مَّ سِبْلٍ» مُتَلَطِّفًا:  
«اغْفِرِي لِي — يَا أُمَاهُ — أَنْ أُخَالَفَ نَصِيْحَةَ لِمَرَّةٍ الْأُوَلَى فِي حَيَاتِي؛ فَلَيْسَ فِي وَسْعِي أَنْ  
أُكْفَّ عَنْ مُعَاوَنَةِ طَالِبِ نَجْدَةٍ أَيًّا كَانَ جِنْسُهُ، وَلَنْ أَطِيقُ سَمَاعَ هَذِهِ الصَّيْحَاتِ الْعَالِيَةِ  
الْمُؤَلِّمَةِ، دُونَ أَنْ أَبْدُلَ جُهْدِي فِي إِنْقَاذِ صَاحِبِهَا مِنْ مَازِقِهِ.»

(٨) حَدِيثُ الْحَطَّابِ

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» صَوَّبَ الْجِهَةَ الَّتِي انْبَعَثَتْ مِنْهَا الصَّيْحَاتُ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَحِيرَةَ «اللُّوتِسِ» لَمَحَتْ عَيْنَاهُ رَجُلًا يَلْبَسُ ثِيَابَ الْحَطَّابِينَ. وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَدْنُو مِنْهُ، حَتَّى هَمَّ الرَّجُلُ بِالْفِرَارِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ. وَلَكِنَّ «أَبَا الْحَجَّاجِ» قَالَ لَهُ مُتَلَطِّفًا: «لَا تَخَشْ مِنِّي شَيْئًا — أَيُّهَا الْغَرِيبُ — وَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِكَ لِأَتَعَرَّفَ قِصَّتَكَ؛ فَمَا جِئْتُ إِلَّا لِإِنْقَادِكَ مِنْ وَرَطْبِكَ، وَلَعَلِّي قَادِرٌ عَلَى تَخْفِيفِ أَلْمِكَ، وَدَفْعِ شِكَايَتِكَ.»



## الفيل الأبيض

فَقَالَ لَهُ الْحَطَّابُ، وَهُوَ شَارِدُ الْفِكْرِ: «وَأَسْفَاهُ، أَيُّهَا الْفِيلُ الْأَبْيَضُ النَّبِيلُ الْكَرِيمُ  
النَّفْسِ! أَلَا لَيْتَكَ قَادِرٌ عَلَى إِعَاثَتِي وَإِنْقَادِي مِمَّا أَنَا فِيهِ؛ فَقَدْ ضَلَلْتُ طَرِيقِي — مُنْذُ سَبْعَةِ  
أَيَّامٍ كَامِلَةٍ — فِي هَذِهِ الْعَابَةِ الْوَاسِعَةِ الْمُوحِشَةِ، الَّتِي لَا يَقْطُنُهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ،  
وَيَنْسُتُ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى مَدِينَةِ «بَنَارِسَ»؛ فَمَنْ لِي بِمَنْ يَهْدِينِي سَوَاءَ السَّبِيلِ؟»  
فَقَالَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ»، وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا وَغِبْطَةً، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ: «مَا  
أَيْسَرُ مَا تَطْلُبُهُ أَيُّهَا الْحَطَّابُ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ظَهْرِي، لِأَحْمَلَكَ إِلَى حَيْثُ يَعِيشُ  
أَبْنَاؤُ جَنْسِكَ مِنَ النَّاسِ.»



## (٩) صَنِيعُ الْفِيلِ

فَابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبْتِهَاجِ، وَقَفَزَ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْأَبْيَضِ فَرِحًا مَسْرُورًا. ثُمَّ انْطَلَقَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَدْعُو بِهِ مَسْرِعًا — خِلَالَ الْغَايَةِ الْوَاسِعَةِ الْأَرْجَاءِ — حَتَّى بَلَغَا مَدِينَةَ «بَنَارِسَ».

فَقَالَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ»: «لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ — أَيُّهَا الْحَطَّابُ — إِلَّا بُرْهَةٌ قَلِيلَةٌ، لِتَصِلَ إِلَى بَيْتِكَ؛ فَإِنَّ مَدِينَةَ «بَنَارِسَ» — كَمَا تَرَاهَا — قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا خُطَوَاتٌ مَعْدُودَةٌ.»

فَهَمَّ الْحَطَّابُ بِأَنْ يَشْكُرَ لِلْفِيلِ النَّبِيلِ هَذِهِ الْبَيْدَ الْبَيْضَاءَ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَيْهِ، إِذْ أَنْقَذَهُ مِنَ الْهَلَاكِ الْمُحَقَّقِ، وَهَدَاهُ إِلَى الطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ ضَلَّ. وَلَكِنْ «أَبَا الْحَجَّاجِ» ابْتَدَرَهُ قَائِلًا: «كَلَّا، لَا تَشْكُرْ لِي صَنِيعِي؛ فَإِنِّي لِقَرِيرُ الْعَيْنِ، مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ بِمَا فَعَلْتُهُ؛ فَقَدْ أَتَحْتَلِي بِفُرْصَةٍ ثَمِينَةٍ، لِأَدَاءِ وَاجِبِي فِي مُعَاوَنَةِ بَائِسٍ مُلْهُوفٍ، وَإِنْقَاذِ ضَالِّ حَائِرٍ، بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعْتُ بِهِ الْأَسْبَابَ.»

ثُمَّ عَادَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» إِلَى كَهْفِهِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ مُبْتَهَجٌ بِمَا أَسَدَاهُ إِلَى الْحَطَّابِ الْمُسْكِنِ مِنْ صَنِيعِ. وَلَمْ يَدْرِ الْفِيلُ النَّبِيلُ مَا يَحْبُبُهُ لَهُ الْقَدْرُ مِنْ أَحْدَاثٍ وَخُطُوبٍ، وَلَمْ يَدْرُ بِخَلْدِهِ أَنَّ الْخَيْرَ قَدْ يَجْلُبُ الشَّرَّ، وَأَنَّ الْإِحْسَانَ قَدْ يُجْزِي عَلَيْهِ بِالْإِسَاءَةِ وَالْجُحُودِ.

## (١٠) غَدْرُ الْحَطَّابِ

وَكَانَ الْحَطَّابُ — لِسُوءِ حَظِّ «أَبِي الْحَجَّاجِ» — غَادِرًا، خَبِيثَ النَّفْسِ، لَيْثِمَ الطَّنْبِ. وَقَدْ وَسَّوسَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَجَرَّهُ الطَّمَعُ إِلَى الْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخَبِيثَةَ أَنْ يُغْدِرَ بِصَاحِبِهِ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ أَقْتَحَ الْجَزَاءِ.

وَلَمْ يَبْقَ فِي خَاطِرِهِ أَنْ «أَبَا الْحَجَّاجِ» قَدْ أَنْقَذَهُ مِنْ حَيْرَتِهِ وَضَلَالِهِ، وَوَقَاهُ عَادِيَةَ الْهَلَاكِ، وَأَنَّهُ — لِذَلِكَ — جَدِيرٌ بِالثَّنَاءِ، لِبِرِّهِ بِهِ وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ؛ بَلْ شَعَلَهُ الطَّمَعُ عَنِ الْوَفَاءِ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْغَادِرَةَ أَنْ يَكْفُرَ بِتِلْكَ النُّعْمَةِ، وَيَجْحَدَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ، فَقَالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «لَقَدْ هَلَكَ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ الَّذِي كَانَ فِي قَصْرِ مَلِكِ «بَنَارِسَ»، قُبَيْلَ خُرُوجِي مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَيَّامٍ،

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلِكَ سَيُكَافِئُنِي أَجْزَلَ مُكَافَأَةً، إِذَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوقَعَ هَذَا الْفِيلَ فِي قَبْضَتِي  
أَسِيرًا، وَأَقْدَمَهُ لِلْمَلِكِ هَدِيَّةً ثَمِينَةً.»

وَمَا لَبِثْتُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْجَارِمَةَ أَنْ أَصْبَحْتُ عَزْمًا وَتَصْمِيمًا، فَرَاخَ الْحَطَّابُ يُنْعَمُ  
بَصَرُهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَهَا «أَبُو الْحَجَّاجِ»، وَظَلَّ يُجِبِلُ لِحَاظَهُ فِي أَشْجَارِهَا الْعَالِيَةِ،  
وَتَلَالِهَا الْمُزْتَفِعَةِ، وَهَضَابِهَا الشَّاهِقَةِ، الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا فِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ؛ حَتَّى لَا يَضِلَّ طَرِيقَهُ  
إِذَا هَمَّ بِالْعُودَةِ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى. وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى حَذَقَهَا، وَتَعَرَّفَ طَرَائِقَهَا جَمِيعًا.

### (١١) بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ

وَلَمْ يَكِدِ الْحَطَّابُ يَصِلُ إِلَى «بَنَارِسَ»، حَتَّى مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ وَقَالَ لَهُ مَسْرُورًا: «لَقَدْ  
اهْتَدَيْتُ إِلَى الْفِيلِ الْأَبْيَضِ الْجَدِيدِ بِأَنْ يَحُلَّ مَكَانَ «أَبِي كَلْثُومٍ»، ذَلِكَ الْفِيلِ الْهَالِكِ الَّذِي  
فَقَدَهُ مَوْلَايَ، وَحَزَنَ لِفَقْدِهِ حُزْنًا شَدِيدًا.»

وَظَلَّ الْحَطَّابُ يَصِفُ لِمَلِكِ «بَنَارِسَ» جَمَالَ «أَبِي الْحَجَّاجِ»، وَيُطَنِّبُ لَهُ فِي تَعْدَادِ  
مَزَايَاهُ وَمَنَاقِبِهِ، حَتَّى أُعْجِبَ بِهِ الْمَلِكُ — عَلَى السَّمَاعِ — وَقَالَ لِلْحَطَّابِ: «لَيْسَ أَشْهَى إِلَيَّ  
نَفْسِي مِنَ الْحُصُولِ عَلَى هَذَا الْفِيلِ الظَّرِيفِ الَّذِي تَصَفَّهُ لِي، فَارْجِعْ إِلَى الْعَابَةِ — مِنْ فُورِكَ  
— فِي عِصَابَةِ مَنْ مَهَرَةَ صَيَّادِي الْفَيْلَةَ الْمَشْهُورِينَ فِي مَدِينَتِي. وَمَتَى نَجَحْنَا فِي صَيْدِ الْفِيلِ  
الْأَبْيَضِ، فَإِنِّي مُكَافِئُكَ وَمُكَافِئُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْزَلَ مُكَافَأَةً.»

### (١٢) عِنْدَ بَحِيرَةِ «اللُّوتَسِ»

فَابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِمَا سَمِعَ، وَأَسْرَعَ — فِي رِفَاقَةِ الصَّيَّادِينَ — يَقُودُهُمْ فِي شِعَابِ الْعَابَةِ،  
وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الطَّرَائِقِ الْمُوصَلَةِ إِلَى كَهْفِ «أَبِي الْحَجَّاجِ»، حَتَّى بَلَغُوا بَحِيرَةَ «اللُّوتَسِ» بِلَا  
مَشَقَّةٍ، حَيْثُ وَجَدُوا «أَبَا الْحَجَّاجِ» يَجْمَعُ الْفَاكِهَةَ لِعِشَاءِ أُمَّهِ الْعُجُوزِ.

وَلَمْ يَكِدْ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَسْمَعُ وَقَعَ خُطُوبَاتِهِمْ، حَتَّى رَفَعَ إِلَيْهِمْ رَأْسَهُ، وَأَجَالَ فِيهِمْ  
بَصَرَهُ؛ فَلَمَحَ صَاحِبَهُ الْحَطَّابَ بَيْنَ صَيَّادِي الْأَفْيَالِ، فَأَدْرَكَ الْفِيلَ الذِّكْرِيَّ أَنَّ الْحَطَّابَ قَدْ  
عَدَرَ بِهِ، وَجَازَاهُ عَلَى مَعْرُوفِهِ الْأَمَّ جَزَاءً. وَتَحَقَّقَ لَهُ كَلَامُ أُمِّهِ، وَوَدِمَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ نَصِيحَتِهَا  
الَّتِي لَمْ يَنْفَعِ النَّدْمُ.

(١٣) في الأسر

وَأَرَادَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» أَنْ يَهْرَبَ؛ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيرًا. وَلَكِنَّ الصَّيَادِينَ الْأَذْكِيَاءَ الْمُدْرِبِينَ عَلَى صَيْدِ الْفِيلَةِ، عَدَوْا فِي آثَرِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِ مَسَالِكَ الْهَرَبِ، وَسَدُّوا مَنَافِذَ الطَّرِيقِ، وَبَدَّلُوا كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِمْ — مِنْ حِيلَةٍ وَمَهَارَةٍ — حَتَّى أَوْقَعُوهُ فِي شَبَاكِهِمْ أَسِيرًا ثُمَّ سَارُوا بِهِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «بِنَارِسَ»، مَسْرُورِينَ مَزْهُوِينَ بِمَا وَفَّقُوا إِلَيْهِ مِنْ فَوْزٍ وَانْتِصَارٍ.

(١٤) حُزْنٌ «أُمِّ شَبْلِ»

وَذَلَّتْ «أُمُّ شَبْلِ» الْمُسْكِينَةَ جَائِمَةً فِي كَهْفِهَا تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ وَحِيدِهَا «أَبِي الْحَجَّاجِ»، حَتَّى جَاءَ اللَّيْلُ وَلَمْ يَعْذِ إِلَيْهَا؛ فَتَوَجَّسَتْ شَرًّا، وَسَاوَرَتْ نَفْسَهَا النُّهُومَ وَالْأَحْزَانَ، وَحَشِيَّتْ أَنْ يَكُونَنَّ قَدْ أَصَابَهُ سُوءٌ، أَوْ لَحِقَ بِهِ أَدَى.

وَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَهُ «أَبِي الْحَجَّاجِ»، أَيْقَنْتْ

«أُمُّ شَبْلِ» الْعَجُوزُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي قَبْضَةِ الصَّيَادِينَ؛ فَوَلَوَتْ وَبَكَتْ، وَذَلَّتْ تَنْدُبُ حَظَّهَا التَّاعِسِ، وَتَقُولُ فِي نَفْسِهَا مَحْزُونَةً مُتَحَسِّرَةً: «الْوَيْلُ لِي مِنْ بَعْدِكَ يَا «أَبَا الْحَجَّاجِ». فَمَا أَدْرِي: كَيْفَ أَصْنَعُ بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ مَعُونَتَكَ، وَحُرِمْتُ بَرَكَ بِي، وَعَطَفَكَ عَلَيَّ؟ وَمَا أَعْرِفُ: كَيْفَ أَعِيشُ فِي هَذِهِ الْعَزَلَةِ، وَلَيْسَ لِي مَنْ يَطْعُمُنِي تِلْكَ الْفَاكِهَةَ الشَّهِيَّةَ، أَوْ يَهْدِينِي إِلَى بُحَيْرَةِ «اللُّوتِسِ»، لِأُرْوِي مِنْهَا ظَمْئِي إِذَا عَطِشْتُ؟ أَلَا إِنَّنِي — مِنْ بَعْدِكَ يَا «أَبَا الْحَجَّاجِ» — لَا شَكَّ هَالِكَةٌ جُوعًا وَعَطَشًا، فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ النَّائِيَةِ! فَيَا لَيْتَنَا تَنَبَّأْنَا بِهَذَا الْمُصَابِ قَبْلَ وَقُوعِهِ، وَفَطْنَا إِلَى هَذِهِ الْكَارِثَةِ، وَعَرَفْنَا عَوَاقِبَ الْأُمُورِ قَبْلَ أَنْ تَحُلَّ بِنَا مُفَاجِئَةً، وَتَنْزَلَ بِنَا عَلَى غَرَّةٍ. وَيَا لَيْتَنَا لِبُنَانَا — حَيْثُ كُنَّا — آمِنِينَ، لَا يَرُوعُنَا عَدُوٌّ، وَلَا يَجْرُؤُ عَلَى الدُّنُوِّ مَنَّا كَائِنٌ كَانَ!»

(١٥) حُزْنٌ «أَبِي الْحَجَّاجِ»

أَمَّا جَرَعُ «أَبِي الْحَجَّاجِ» وَحُزْنُهُ، فَقَدْ فَاقَا جَرَعَ أُمَّهُ وَحُزْنَهَا، فَلَقَدَ بَرَحَ بِهِ الْوَجْدُ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْأَلَمُ، لَوْحَدَةِ أُمَّهُ وَضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا عَنِ الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِهِ. وَظَلَّ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ

سائرٌ في طريقه إلى حيث يقوده صيادوه الأشداء: «لك الله يا أمَّ سبيل!» فما أدري: كيف تُصيحين في مَحَلِّ بَعْدِي، أَيُّهَا الأُمُّ الحَنُونُ البَارَّةُ؟ أَلَا لَيْتَنِي أَصْغَيْتِ إِلَى نَصِيحَتِكَ، وَقَبِلْتِ رَأْيِكَ، وَلَمْ أُخَالِفْ مَشُورَتَكَ. إِذْنُ غَمِمْتُ السَّلَامَةَ وَالتَّوْفِيقَ، وَنَجَوْتُ مِنَ العُدْرِ وَالْجُودِ.

لَقَدْ حَذَرْتِنِي — يَا أُمَّاهُ — كَيْدَ الإِنْسَانِ وَجُودَهُ؛ فَلَمْ أَصْغِ إِلَى نَصِيحَتِكَ، وَلَمْ أَنْتَفِعْ بِنَحْدِيرِكَ. وَلَوْ أَنَّنِي سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ، وَأَخَذْتُ بِرَأْيِكَ السَّيِّدِ؛ لَعِشْتُ طَوْلَ عُمْرِي هَانِئًا وَادِعًا، نَاعِمًا بِالْحُرِّيَّةِ بِجِوَارِكَ، وَلَمْ أَقَعْ فِي قَبْضَةِ هَؤُلَاءِ الأَشْرَارِ العَادِرِينَ.

وما أدري: كَيْفَ تَصْنَعِينَ — يَا أُمَّاهُ — بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعْتَ بِكَ أَسْبَابَ الحَيَاةِ، وَفَقَدْتِ نَاصِرِكَ الوَفِيَّ الأَمِينِ، وَحُرِمْتِ وَلَدِكَ الصَّادِقَ المُعِينِ؟»

### (١٦) مُكَافَأَةُ المَلِكِ

وَلَمَّا مَثَلَ الصَّيَّادُونَ وَالحَطَّابُ بَيْنَ يَدَيْ المَلِكِ، وَمَعَهُمُ الفَيْلُ الأَبْيَضُ، أُعْجِبَ المَلِكُ بِمَنْظَرِهِ، وَسَرَّ بِهِ سُرُورًا عَظِيمًا. وَكَانَتْ أَمَارَاتُ الكَابَةِ وَالحُزْنُ بِأَدْيَةِ عَلَى مَلَامِحِ «أَبِي الحَجَّاجِ»، وَلَكِنهَا لَمْ تَنْلُ مِنْ جَمَالِ شَكْلِهِ، وَبِهَاءِ مَنْظَرِهِ؛ فَقَالَ المَلِكُ: «مَا أَجْمَلُهُ فَيْلًا رَائِعَ المَنْظَرِ، بِهِي المَلَامِحِ، مُشْرِقَ الطَّلَعَةِ! فَلَا تَخْذَنَّهُ — مُنْذُ اليَوْمِ — مَرْكَبِي؛ فَهُوَ أَفْخَمُ فَيْلٍ رَأَيْتُهُ أَوْ سَمِعْتُهُ بِهِ فِي حَيَاتِي.»

ثُمَّ أَجْزَلَ المَلِكُ مُكَافَأَةَ الحَطَّابِ وَالصَّيَّادِينَ، وَأَمَرَ أَتْبَاعَهُ أَنْ يَتَخَيَّرُوا أَحْسَنَ مَكَانٍ فِي الإِصْطَبِلِ المَلَكِيِّ؛ لِيَحُلَّ فِيهِ «أَبُو الحَجَّاجِ»، كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يُحَلُّوهُ بِأَثْمَنِ اللَّالِيِ وَأَنْفَسِ اليُوقَيْتِ.

### (١٧) مَرَضُ «أَبِي الحَجَّاجِ»

وَمَرَّتْ عَلَى هَذَا الحَادِثِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، ثُمَّ أَرَادَ المَلِكُ أَنْ يَرْكَبَ الفَيْلَ الأَبْيَضَ، وَيَطُوفَ بِهِ فِي المَدِينَةِ؛ فَقَالَ لَهُ أَتْبَاعُهُ، وَالحُزْنُ بَادٍ عَلَى وُجُوهِهِمْ: «إِنَّ الفَيْلَ الأَبْيَضَ — يَا مَوْلَانَا — قَدْ مَرَضَ مَرَضًا حَظِيرًا، وَإِنْتَابَهُ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَهُوَ — مُنْذُ حَضَرَ أَرْضَنَا — لَمْ يَدُقْ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا. وَقَدْ تَحَيَّرْنَا لَهُ أَشْهَى الأَطْعَمَةِ وَالأَشْرِبَةِ مِنَ الفَاكِهَةِ وَالحَشَائِشِ، فَلَمْ يَدُقْ مِنْهَا شَيْئًا.»



فَارْتَاغَ الْمَلِكُ لِهَذَا النَّبَأِ، وَأَسْرَعَ - فِي الْحَالِ - إِلَى الْإِصْطَبَلِ؛ فَرَأَى عَلَى وَجْهِ «أَبِي  
 الْحَجَّاجِ» سِيْمَا الْكَدْرِ وَالْهَمِّ، فَصَاحَ بِهِ قَائِلًا: «مَا بِالْك - أَيُّهَا الْفِيلُ الْكَرِيمُ - قَدْ تَغَيَّرْتَ  
 مَلَامِحُكَ، وَبِيءَ وَجْهُكَ وَتَبَدَّلَتْ أَطْوَارُكَ؟ أَيُّ شَيْءٍ بَغَضَ طِعَامَنَا وَشَرَابَنَا إِلَيْكَ؟ أَتَرَى  
 خَدْمِي قَدْ أَهْمَلُوا الْعِنَايَةَ بِأَمْرِكَ؟ أَمْ تَرَاهُمْ قَصَّروا فِي تَحْرِيرِ مَا يُرْضِيكَ مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعَمَةِ  
 الَّتِي تَشْتَهِيهَا نَفْسُكَ؟»

## (١٨) شُكْوَى «أَبِي الْحَجَّاجِ»

فَهَرَّ «أَبُو الْحَجَّاجِ» رَأْسُهُ الضَّخْمَ، وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، قَدِ ارْتَسَمَتْ فِيهِ نَبْرَاتُ الْحُزْنِ وَالْأَسَى: «كَلَّا يَا مَوْلَايَ!»

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ، وَقَدِ اشْتَدَّ شَوْقُهُ إِلَى تَعْرِفِ قِصَّتِهِ: «خَبَّرْنِي — فِي صِرَاحَةٍ — أَيُّهَا الْفَيْلُ الْكَرِيمُ عَنْ سِرِّ هَمِّكَ وَآخِثَاتِكَ؛ فَإِنِّي بَادِلُ جُهْدِي فِي إِسْعَادِكَ وَتَحْقِيقِ أَمْنِيَّتِكَ، إِذَا وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.»

فَقَالَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» فِي لَهْجَةٍ حَزِينَةٍ: «شُكْرًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ عَلَى عِنَايَتِكَ بِأَمْرِي، وَاهْتِمَامِكَ بِشَأْنِي. وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ مَصْدَرِ حُزْنِي، واقْتَرَحْتَ عَلَيَّ أَنْ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ الْأَمَانِيَّ. وَلَيْسَ لِي مِنْ أُمْنِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ أَعُودَ إِلَى أُمِّي الْعَجُوزِ التَّاعِسَةِ الْعَمِيَاءِ، الَّتِي تَرَكْتُهَا فِي الْعَابَةِ وَحِيدَةً لَا عَائِلَ لَهَا، وَهِيَ تُوشِكُ أَنْ تَهْلِكَ جُوعًا وَعَطْشًا فِي كَهْفِهَا. وَلَنْ أُطْعَمَ شَيْئًا بَعْدَهَا، وَلَنْ أُسْتَسَيِّغَ الزَّادَ وَهِيَ تَتَضَوَّرُ جُوعًا، وَلَا تَجِدُ إِلَى الطَّعَامِ سَبِيلًا.»

فَسَأَلَهُ مَلِكُ «بِنَارِسَ» عَنْ قِصَّتِهِ؛ فَحَدَّثَهُ بِهَا كُلَّهَا، وَأَخْبَرَهُ بِانْتِقَالِهِ هُوَ وَأُمُّهُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْ قَطِيعِ الْفَيْلَةِ، وَكَيْفَ عَاشَ مَعَ أُمَّهِ أَسْعَدَ عَيْشٍ فِي عَزْلَةٍ وَإِدْعَاةٍ هَنِئِيَّةٍ؛ حَتَّى جَاءَهُمَا الْحَطَّابُ، وَكَانَ مَقْدَمُهُ عَلَيْهِمَا شَوْمًا وَخَرَابًا؛ فَكَدَّرَ صَفْوَ عَيْشِهِمَا الرَّغِيدِ بِخِيَانَتِهِ وَعَدْرِهِ.

## (١٩) الْفَكَاكُ مِنَ الْأَسْرِ

كَانَ مَلِكُ «بِنَارِسَ» عَادِلًا رَحِيمًا، يُؤَيِّزُ الْإِنصَافَ، وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوفِ؛ فَقَالَ لِلْفَيْلِ الْأَبْيَضِ، عَلَى شُغْفِهِ بِهِ، وَرَعْبَتِهِ فِي اسْتِنْبَاقَائِهِ: «أَيُّهَا الْحَيَوَانُ النَّبِيلُ، إِنَّ طَبِيبَةَ قَلْبِكَ، وَحُسْنَ طَوِيَّتِكَ، قَدْ أَظْهَرَا — أَمَامِي — خِسَةَ الْجِنْسِ الْإِدْمِيِّ وَعَدْرَهُ. وَقَدْ أَطْلَقْتُ سَرَاحَكَ — مُنْذُ الْآنَ — فَعُدْ إِلَى أُمَّكَ وَارْعَهَا، وَتَوَلَّ أَمْرَهَا، وَثَابِرْ عَلَى بَرِّكِ بِهَا، وَعَطْفِكَ عَلَيْهَا مَا حَبِيتَ.»

فَشَكَرَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ» عَدْلَتَهُ وَكِرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ، وَقَالَ لَهُ مُغْتَبِطًا فَرِحَانًا: «لَنْ أَنْسَى لَكَ هَذَا الْجَمِيلَ!»

## (٢٠) اجْتِمَاعُ السَّمْلِ

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» فِي طَرِيقِهِ إِلَى كَهْفِ أُمِّهِ، عَلَى مَا بِهِ مِنْ ضَعْفٍ وَهْزَالٍ، وَجُوعٍ وَعَطَشٍ. وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرَجِهِ وَابْتِهَاجِهِ حِينَ رَأَى أُمَّهُ لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرَجِ «أُمِّ شَبْلِ» بِوَلَدِهَا حِينَ عَادَ إِلَيْهَا بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ عَوْدَتِهِ!

وَلَمْ يَكَدْ يَسْتَقِرُّ بِهِ الْمَقَامُ، حَتَّى قَصَّ عَلَى أُمِّهِ كُلَّ مَا حَدَّثَ لَهُ فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِهِ. فَقَالَتْ لَهُ مُتَأَلِّمَةً: «لَقَدْ كَانَ عَلَيْكَ — يَا وَلَدِي — أَنْ تُصْغِيَ إِلَيَّ نَصِيحَتِي! فَهَلْ أَمَنْتَ الْآنَ بِغَدْرِ الْأَدَمِيِّينَ، وَجُحُودِ بَنِي الْإِنْسَانِ؟ وَهَلْ أَدْرَكْتَ أَنَّ سُوءَ النَّيَّةِ — كَمَا حَدَّثْتُكَ — مُتَأَصِّلٌ فِي نَفُوسِهِمْ مُنْذُ الْقَدَمِ؟»

فَقَالَ لَهَا «أَبُو الْحَجَّاجِ»: «لَيْسُوا جَمِيعًا خَوْنَةً وَعَادِرِينَ — يَا أُمَّاهُ — فَإِنَّ فِيهِمْ الطَّيِّبَ وَالْخَبِيثَ، وَالْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ. وَلَوْلَا أَنَّ مَلِكَ «بَنَارِسَ» عَادِلٌ رَحِيمٌ، سَرِيُّ النَّفْسِ، لَمَا وَجَدْتُ إِلَى الْفَكَاحِ مِنْ أَسْرِي سَبِيلًا طَوَّلَ الْحَيَاةَ. وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَنْسَى — يَا أُمَّاهُ — عَذْرَ الْحَطَّابِ، وَلَا نَذْكُرَ إِلَّا كَرَمَ الْمَلِكِ وَإِحْسَانَهُ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ.»

## (٢١) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَقَدْ بَرَّ «أَبُو الْحَجَّاجِ» بِمَا قَالَ، وَنَسِيَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — عَذْرَ الْحَطَّابِ وَخِيَانَتَهُ، وَجُحُودَهُ وَإِسَاءَتَهُ.

وَلَكِنَّهُ ظَلَّ — حَيَاتَهُ كُلَّهَا — يَذْكُرُ صَنِيعَ مَلِكِ «بَنَارِسَ»، وَيَشْكُرُ لَهُ مَعْرُوفَهُ الَّذِي أَسَدَاهُ، وَلَا يَنْسَاهُ.